القصديّة الإنجازيّة في خطاب البيان والتّبيين للجاحظ

أ.د. عبد الإله إبراهيم عبد الله

مهدي حسن نصر الله

الجامعة المستنصرية/ كلية الآداب

المُلخص:

تندرج هذه الدّراسة في صلب النظرية التّداوليّة، ببيان كيفيّة استعمال اللغة وفق السياقات التّخاطبيّة و المقامات المُختلفة التي يُنجز فيها الكلام، لتحقيق مَقاصِد المُتَخاطبين، وإدراك هذه المقاصد من قبل المستمعين، لكون القصد قرينة تداوليّة تواصليّة في سياق الفعل الخطابي، واستناداً إلى نظريّة الأفعال الكلاميّة التي وضع أسسها (أوستن Austen) وطوّرها(سيرل Serale). ومن هنا جاءت هذه الدراسة محاولةً نوضّح من خلالها أنَّ الخطاب المتنوّع في كتاب(البيان والتّبيين) للجاحظ ليس بياناً بلاغيّاً ضيّقاً لِمُعطَيات التعبير والإخبار، وإنَّما هو فوق ذاك خطاب ذو مقاصد تأليفيّة، هي مَحطَّ تأثير وإنجازٍ وتواصل.

مُقدّمة:

تتابعت الدراسات اللغوية لإعادة قراءة التراث اللغوي العربي قراءة تكشف عن مكامنه، وتبرز جوانبه الصوتية والصرفية والنحوية والدلالية والتداولية.

والجدير بالذكر ان النظريات الحديثة تمدُّ الدراسات اللغوية بسيل من الأفكار والتصورات الإيجابية تخرجها– إن فُعِّلتْ – من حيّز القراءة الاجترارية إلى حيّز القراءة التأسيسية القادرة على بناء المعرفة بناءً تراكميّا معرفيّا،عبر تزويد الدارس بأدوات منهجيّة جديدة، ووسائل إجرائيّة تكفل للباحث كشف السياقات التحليليّة وتثبت نتائجها بالأدلة التي من شأنها إبراز مقدرة العربية على احتواء مثل هذه الأطر النظريّة وآلياتها التفسيّرية. ومن هذه الدراسات ما يدل على اهتمام علماء العربية بالجانب التداولي للُّغة من خلال نظريّة الأفعال الكلاميّة (اللغويّة)، ويطلق عليها نظرية الحدث الكلامي، أو الفرضيّة الإنجازيّة.

تداولية أفعال الكلام Speech acts:

وتسّمى تداولية الدرجة الثالثة، وهي نظرية الأفعال الكلاميّة التي وضع أطروحتها "أوستن Austin"، وأقام بناؤها "سيرل j-Serale "، ثم وسَّع مجالها، في أطوار، باحثون آخرون .وتقوم هذه النظرية على فرضيّةٍ أساسها أنّ الجُمل في اللغاتِ الطبيعيّة لا تنقل مضامين مجرّدة، وإنّما تؤدي وظائف تختلف باختلاف السّياقات والمقامات ، فتفيد طلباً، أو سؤالاً، أو وعداً، أو غيرها، مما يحققه السلوك اللغوي من الفعل. وتتمّ عمليّة التخاطب عند علماء اللغة المُحدثين بوجود الفعل الكلامي الذي يتحول إلى فعل الإنجاز، و" تتحقق القوة الانجازية حسب مقتضى الحال لأنّه لا يمكن وصفه بالصدق أو الكذب، فقد يكون فعلاً انجازياً ناجحاً أو مخفقاً، أو إذا كان يستجيب لمقتضى الحال من عدم الإستجابة"[1]، فقد قسم سيرل الأفعال الكلامية إلى قسمين هما:

- الأفعال التي لها دلالات حرفية لقول ما
- وأفعال ذات دلالة غير حرفية لفهم ملفوظ ما.

وتتمّ عملية فهم الأقوال، حسب(سيرل)، في أربعة مراحل:

- إنجاز فعل القول.
- مرحلة الإسناد، أي الفعل الذي يربط العلاقة بين المتخاطبين.
- مرحلة إنجاز القصد من القول وتنفيذه.
- مرحلة وجود فعل التأثير، وهو الذي يترك أثراً في ذهن المتلقي لتتمّ عملية الفهم، وانتقال الدلالة الحرفيّة إلى المتلقي ،وهي الدلالة الإستلزاميّة التي تتحقق بدورها بشرطين هما:
- القدرة على معرفة الخلفيّة الفكريّة المعرفيّة للمتخاطبين.
- المرور بالعمليات الإستدلاليّة لدى المتلقي، وفيها يتمّ الفهم أثناء عملية التواصل، وبذلك تبنى مقاصد الإخبار على التوافق الضمني بين المرسل والمتلقي.

وقد عَمل(سيرل) على تطوير نظريّة الأفعال الكلاميّة، وأضاف إلى ما جاء به (أوستن) أفكاراً هامَّةً، وقدَّمَ لهذهِ الأفعال تصنيفاً جديداً وبديلاً يَقوم على أُسسٍ منهَجيّةٍ هي[2]:

- الغرض الإنجازي.
- إتِّجاه المُطابقة.
- شرط الإخلاص.

الفرضية الإنجازيّة:

الفرضيّة الإنجازيّة هي إحدى المكونات الأساسيّة التي قامت وتقوم عليها نظريّة الأفعال اللغويّة التي تعد بدورها دعامة أساسيّة داخل اللسانيات التداوليّة، وهذه الأخيرة تحيل إلى مستوى من مستويات الدرس اللغوي، ويمثل فيها الفعل اللغوي العنصر الأساس في التحليل وليس المورفيم أو الكلمة أو الجملة .

واللسانيات التداوليّة انبثقت عن التقسيم الثلاثي من قبل الفيلسوف الأمريكي ش.موريس ي 1938 الذي ميّز مجالات ثلاثة في الإحاطة بأيَّة لغة سواء أكان صوريّا أم طبيعيّا :

1. علم التّركيب: الذي يعني بعلاقات الدلائل فيما بينها.
2. علم الدّلالة: الذي يعالج علاقات الدلائل بالواقع .
3. التّداولية: التي تهتم بالعلاقات القائمة بين الدلائل ومستعمليها، واستعمالها وآثارها .

وعندما نقول إن ظاهرة ما خاضعة لعوامل تداوليّة فإننا نقصد بذلك المكون الذي يعالج وصف معنى الملفوظات والعبارات اللغويّة في سياقها العام قبل الخاص الذي يأخذ فيه بعين الاعتبار المقام التخاطبي وظروف المتخاطبين وشروط إنتاج الخطاب، وهذا التصور للُّغة جاء ليحلَّ محلَّ النظريّة التقليديّة في تحصيل معاني العبارات، فهو يضع مركز الصدارة قوة الدلائل والطابع النشط للُّغة، وانعكاساتها الأساس، كونها تحيلُ على العالم بإظهار نشاطها الشخصي التلفظي وطابعها التفاعلي وصلتها الأساس بإطارٍ يسمح بتأويل الملفوظات وبعدها القانوني؛ لأن نشاط الكلام محكوم بشبكة ضيّقة من الواجبات والالتزامات.

وتعدُّ الفرضيّة الإنجازيّة أو نظريّة الفعل اللغوي من أهم النظريّات الفلسفيّة الأنجلو سكسونية (أوستن، وسيرل) التي تُعنى بدراسة ذلك النمط الخاص من الفعل المشكّل للُّغة، أي الوحدة الصُّغرى التي بفضلها تُحقِّق اللغة فعلاً بعينهِ (أمر، طلب، تصريح، وعد..) غايته تغيير حال المتخاطبين .

ويرى **أوستن** أنَّ بإنتاجنا فعلاً لغوياً نكون في الواقع قد قمنا بإنجازِ ثلاثة أفعال متزامنة:

• **الفعل اللغويّ**: أي ننتج متوالية من الأصوات لها تنظيم تركيبي وتحيل على شيء بعينه.
• **الفعل الإنشائي (الإنجازي)**: أي ننجز من خلال كلامنا نفسه فعلا يغيّر العلاقات القائمة بين المتفاعلين :التصريح بشيء ، الوعد بشيء.. الخ

• **الفعل التـأثيري:** يمكننا إنجاز فعل إنشائي لنحقق أفعالا متنوعة،فالسؤال مثلا قد تكون الغاية منه استمالة المتلفظ المشارك أو الإبانة عن تواضعنا أو إزعاج طرف ثالث ...الخ وهناك نوعان من الأفعال اللغويّة :

- **فعلٌ لُغويٌّ مُباشِرٌ:** يَرتَبِطُ بِشَكل المَلفُظ.
- **فعلٌ لغويٌّ غير مُباشر:** يتجاوز الصورة الظاهرة، مثل قولنا:(أيمكنك فتح النافذة ؟) فهي جملة لا تتضمن (الاستفهام) بقدر ما تتضمن (الأمر)، وفي هذا الصّدد يَقترحُ **غرايس** تنميطاً للعبارات اللغويّة يقوم على المقابلات الآتية التي تَنْقَسمُ الحمولة الدلاليّة للعبارة على أساسها إلى معان صريحة ومعان ضمنيّة :

1/ **فالمعاني الصريحة:**هي المدلول عليها بصيغة الجملة ذاتها وتشمل ما يلي :

أ: **المحتوى القضوي،** وهو مجموع معاني مفردات الجملة مضموم بعضها إلى بعض في علاقة إسناد.

ب: **القوة الإنجازيّة الحرفيّة،** وهي القوة الدلاليّة المؤشر لها بأدوات تصبغ الجملة بصيغةٍ أسلوبيّة ما: كالاستفهام والأمر والنداء والتوكيد والنهي والإثبات والنفي ..

2/ **المعاني الضمنيّة/** أو **القوة الإنجازيّة المستلزمة خطابيّا:** هي المعاني التي لا تدل عليها صيغة الجملة بالضرورة ولكن للسياق دخل في تحديدها والتوجيه إليها وتشمل ما يأتي :

أ: معاني عُرفيّة : وهي الدلالات التي ترتبط بالجملة ارتباطاً أصيلاً وتلزم الجملة ملازمة في مقام معيّن، مثل: دلالة الاقتضاء في قولهﷺ ((إن اللّه وضع عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه)) وهي دلالة الإثم.

ب: معاني حواريّة: وهي التي تتولد طبقا للمقامات التي تنجز فيها الجملة، مثل الدلالة الاستلزاميّة نحو دلالة الالتماس المستفادة من جملة أمر الآمر فيها أدنى من المأمور،ويمكن التمثيل لتلك المستويات الدلالية بالمثال الآتي:قوله تعالى:((هَلْ إِلَى مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ)) [الشورى:44] .

فالمعنى الصريح للجملة (الآيةُ الكريمة) مُشكَّلٌ من محتواها القضوي وقوتها الإنجازيّة .

أما **المحتوى القضوي،** فهو ناتج من ضم معاني مكوناتها: الرجوع إلى الحياة الدنيا مرة أخرى بعد الموت.

وأما **قوتها الإنجازيّة الحرفيّة**، والمؤشر لها بالأداة هل ، فهي الاستفهام، وينتج معناها الصريح من ضم محتواها القضوي إلى قوتها الإنجازيّة الحرفيّة. والمعنى الضمني للجملة (أ) يتألف من معنيين جزئيين هما كالآتي:

- **معنى عُرفي هو الاقتضاء**، أي اقتضاء حالهم الرجوع إلى الحياة الدنيا.
- **ومعنى حواري استلزامي**، وهو تمنّي المتكلمين من الله سبحانه وتعالى أن يردّهم إلى الدنيا .

القَصْد والأفعال الكلاميّة:

للمتكلّم أن يُعبّر عن قَصْده من خلال شكل اللّغة التي يستعملها مباشرة، وفق ما يَتطابق مع معنى الخطاب، كما يمكن أن يستعمل التَّلميح وبعض الأساليب غير المباشرة لإيصال المعنى المقصود، ولكن باستعمال الخطاب المناسب للسياق، فتنتج عنه دلالة يفهمها المُتلقي، وهي حتماً تستلزم قصداً يدلُّ عليه الخطاب[3].

ففعل الإنجاز هو ما يتصل بالجانب المقامي للجملة، الذي يواكب فعل القول ليربطه بقصد المتخاطبين وأغراضهم من مقول الجملة، كأن يكون القصد منه الإخبار أو السؤال أو الأمر،أو النهى، أو الوعد، أو الوعيد، وغير ذلك من الأغراض التبليغية التي ينوي المشاركون في عملية التخاطب تبادلها فيما بينهم[4].لأنّ التداولية تنظر إلى اللغة بأنها ظاهرة خطابية وتواصلية واجتماعية.

وتُحدّد الدلالات بتعيين أفعال الكلام التي يمكن أن تتضمنها الجملة، والتي تمثل القصد الحقيقي للمتكلّم، فهي " تسهم إلى جانب السياق في تحديد الدلالة الدقيقة ونوع التواصل بينه (المتكلّم) وبين المخاطب" [5].

ولهذا عُدَّت نظرية الأفعال الكلامية من أهم جوانب اللسانيات التداولية لما تضمّه من آليات القصد والإفادة فضلاً عن الحجاج...وغيرها، فلقيت اهتماماً بالغاً في اللسانيات الحديثة.

وبما أنّ الكلام عملية مُؤسَّسة على مشاركة أطراف الخطاب، والأساس فيه المتكلّم والمستمع، وأنّ نظرية أفعال الكلام قائمة على فرضيّة أساس مفادها أنّه يُقصد بالكلام تبادل المعلومات والقيام بفعل خاضع لقواعد مضبوطة في الوقت نفسه، "ويهدف هذا الفعل إلى تفسير وضعيَّة المتلقي ونظام معتقداته ومواقفه السلوكية"[6]، فقد ارتأى الطالب أن يعرض

في هذا المبحث جانب من الجوانب التداولّية وهو(أفعال الكلام) بغية بيان أنّ الموروث العربيّ اللغوي يزخر بما جاء به الباحثون في ميدان اللسانيات التداولية وبخاصة في (نظرية أفعال الكلام) وفق تصنيف "سيرل j.Seral " .

وقد عمد الجاحظ في (البيان والتّبيين) إلى تبني قواعد التخاطب، ومختلف المواضعات اللغوية والإجتماعية والدينية، التي بها يتحقق الفعل الكلامي الناجح، لتتمّ الإفادة؛ ذلك بوجود قدرات ومقاصد للمتخاطبين على بناء النسق الاستدلالي للخطاب والتأثير في الآخر للوصول إلى تحقيق النتائج المرجوّة،هذه المقاصد التي سنتبيّنها من خلال تطبيق تصنيف(سيرل) للأفعال الكلاميّة على بعض نصوص الجاحظ ومختاراته في البيان والتبيين:

1.الإخباريات أو التقريريات Assertives:

"وغايتها الكلاميّة تكمن في جعل المتكلّم مسؤولاً عن وجود وضع الأشياء، واتجاه المطابقة في القصد الإخباري هو من الكلمات إلى العالم (Words to world) ، أما الغرض الإنجازي فيها فهو نقل المتكلّم لواقعة ما من خلال قضية معينة، وأفعال هذا الصنف كلّها تحتمل الصدق والكذب، وتتضمن أفعال الإيضاح" [(7)].

ومن نصوص المدوّنة التي تصنّف ضمن الإخباريات ما أورده الجاحظ، قال:

((قال العائشيّ وخالد بن خداش: حدَّثنا مهدي بن ميمون عن غيلان بن الشِّخِّير، عن أبيه، قال: قَدِمْنَا على رسول الله(ص وآله) في وفدٍ فَقُلنا: يا رسول الله أنتَ سيّدنا، وأنتَ أطْوَلنا طولاً، وأنتَ الجفنة الغرَّاء، فقال:أيُّها النّاس، قولوا بقولكم ولا يستَفِزَّنَّكم الشيطان، فإنَّما أنا عبدالله و رسوله))[(8)].

يُعدُّ هذا النصُّ ضمن الإخباريّات الذي من شروطه استحظار المُتكلّم لِشواهد تُؤكّد صدق ما يَقرَّهُ، لهذا نجد النّص يحفلُ بالسَّند الذي من خلالهِ يَتَحقَّق القَصْدُ التَّواصلي و المَطلب التَّداولي. وإذا ألقينا نظرة على الأفعال الواردة فيهِ نجد أغلبها بصيغة الماضي: قال، حدَّثنا، قَدِمْنَا، فقلنا، فقال. ومن المضارع فعل واحد: يستَفَزّنَّكُم، ومن الأمر فعل واحد: قولوا، وهذا ما تطلَّبته صيغة الخطاب، مع العلم أنَّ هذا التقسيم هو ما دأب عليه علماء النحو، فسيبويه يقول: ((وأمَّا الفعلُ فأمثِلَتهُ أُخذت من لفظ أحداث الأسماء، وبُنيت لِما مَضى، ولما يكون ولم يقع، وما هو كائنٌ لم ينقَطِع))[(9)]، وتَنوّع الأفعال دلالة على التّغيّر. إنَّ وجود الأفعال في الخطاب إنَّما تَدلُّ على الحَركةِ و الحَيَويَّة، كما أنَّ النَّص اصطبغ بالتقريريّة نتيجةً لطغيان الأفعال بصيغة الماضي التي تناسب مقام القصّ والسَّرد والإخبار، ومن

المعلوم أنَّ أساليب الإخبار غرضها إفادة المخاطب بما تَضمَّنته من حقائق. إلّا أنَّ الأفعال بكلِّ أصنافها ذات أبعاد تداوليَّة، فلها قوَّة مُتَضمِّنَة في القول كما يَقول سيرل:((أي ملأ اللفْظ بِقوَّةٍ إنجازيَّةٍ مُعيَّنةٍ، والقوَّة التّعبيريّة هي الصّيغَةُ التي يَخرُج بها الكلام، كأن يَكون: وعداً أو تَهْديداً أو التِماساً أو تَقريراً...))[10].

أمَّا على مستوى الجُمَل فقد زاوج النّص بين الجمل الخبريّة و الجمل الإنشائية، فمن الخَبريّة قوله:

- حَدَّثنا مهدي بن ميمون...
- قَدِمْنَا عَلى رسول الله (ﷺ).

والخبر، كما هو معروف عند القدماء، الكلام المُفيد أو الخطاب التّواصلي الذي يَقبلُ الصِّدق و الكذب[11]. ويُعدُّ الإخبار من الأفعال التّوجيهيّة، لأنَّهُ يُحفّزُ المُتَلقي لِردَّ فعل المُتكلّم، حيث يتمكّن المُخبر بعد ذلك من تَحديد مَقَاصده. ،إنَّ حمل هذه الآليّة في بُعدها التّداولي يُعطيها بُعداً ديناميّاً يُعزّز دور المُتلقي في تفعيل عمليَّة التَّواصل. وبهذا المفهوم يُحقّق الخبر الإقناع، والقصد منه تحقيق الإستجابة و التَّقبُل عند المُتلقي.

ومن الجمل الإنشائيّة:

- النِّداء: يا رسول الله... أيُّها النَّاس، والنِّداء للرّسول(ص وآله) بالأداة (يا) ليس لِبُعْدِهِ، وإنَّما لتحبيب ذكْره ومناداته.
- الأمر: قولوا بقولكم.
- النهي: لا يَسْتَفِزَّنَّكم الشيطان، وفيه طلب الكفّ عن الفعل.
- التوكيد: في النّون المُشدَّدة في(يستَفزَّنَّكم)، واستعماله بأبعاده المعنويّة لِأغراضٍ تداوليّة ترتبط بقصد المُتكلّم وحال السامع.

وتكمن قوة الفعل الكلامي في استعمال أساليب النِّداء والنهي والتوكيد والحَصْر التي بها بلَّغ الرسول الكريم (ﷺ) قَصْدهُ، وهو دعوة لإرشادِ وتوجيهِ النَّاس إلى ما فيهِ صالح الأخلاق. وشرط الإخلاص يكمنُ في النَّقل الأمين بأسلوب هادف إلى تَّقريب الحقيقة، وهو الغرض الإنجازي من أفعال النَّص.

أمَّا الفعل الناتج عن القول، وهو ما دلَّ على ترك أثرٍ في الواقع، فتجلّى في بيان فضل الرسول(ﷺ) والدَّرس الأخلاقي في التَّواضع لله. وبذلك نتوصّل إلى أنَّ القَصْد من هذا

النصّ الإخباريّ بيان مضمون طريقته(ﷺ) في توجيه النّاس، وهكذا تحقّقت المُطابقة في بُعدها التّداولي، فاتّجاهها من الكلمات إلى الواقع.

2. **التوجيهيات Directives:**

وتسمّى الأمريّات أو الطلبيّات أيضاً، و" غرضها الإنجازي محاولة المتكلّم توجيه المخاطب إلى فعل شيء ما"[12].واتجاه المطابقة في القصد التوجيهي يكون من العالم إلى الكلمات World – to –words ، والمسؤول عن ذلك هو المخاطِب وشرط الإخلاص يتمثل في الإرادة والرغبة الصادقة[13]،والمحتوى القضوي فيها هو دائماً فعل السامع شيئاً في المستقبل[14]." ويدخل ضمن أفعاله الإستفهام، الأمر، الرجاء ، الاستعطاف، التشجيع ، الدعوة، والإذن والنصح"[15].

فالغاية الكلامية في هذا الصنف من الأفعال هو حمل المخاطَب على القيام بفعل معيَّن، ومن هذا الصنف قول الجاحظ: " فإن أردت أن تتكلّف هذه الصناعة ،وتُنسَبُ إلى هذا الأدب، فقرضتَ قصيدةً ، أو خُطبةً ،أو ألّفْتَ رسالةً، فإيَّاك أن تدعَوك ثقتُك بنفسك، أو يدُعوَك عُجْبك بثمرة عقلك إلى أن تنتحلَه وتدَّعيَه؛ ولكن اعرِضْه على العلماء في عُرْض رسائلَ أو أشعارٍ أو خطب؛ فإنْ رأيتَ الأسماعَ تُصغي له، والعيونَ تَحْدِج إليه، ورأيتَ مَنْ يطلبُه ويَسْتحسنه، فانتحله"[16].

فهذا النص من صنف التوجيهيات على حدّ تصنيف سيرل، فقد حفل بالأفعال التي نجد منها:

صيغة الماضي: قرضتَ، حبَّرتَ، ألّفتَ، رأيتَ.

صيغة المضارع: يدعو، تدعو، تنتحل، تدّعي، تصغي، تحْدِج، يطلب.

صيغة الأمر: اعرِض، إنتحل.

صيغة المبني للمجهول: تُنسَب، وفي هذه الصّيغة دلالة على عدم الإهتمام بالفاعل أو القائم بالفعل ومصدر القول، وإنَّما المُهمّ هو الفعل والخطاب الذي بَعدهُ.

واختلاف الأزمنة في النص أفضى عليه الحركة والحيوية.وقد أنتج الجاحظ خطاباً فحواه النصح والإرشاد رغبة منه في إنجاز فعل موجّه إلى المخاطَب بقصد الإفادة، ساعياً إلى إقناع المرُسل إليه بالإلتزام به وتنفيذه. ولذلك استهلّ كلامه بحرف (إنْ) التي تفيد التوكيد ،ولِلَفت انتباه السامع إلى الشيء المقصود المرُاد الإفصاح عنه ولتأكيد أهميته، فأردف حرف

(الفاء) السببيّة بأداة التوكيد لبّيان أهمية ما سيقول .ولهذا كانت جمل النص البارزة هي التوكيد والتحذير:

- إياك أن تدعوك ثقتك بنفسك...
- أو يدعوك عجبك بثمرة عقلك...

أمّا الغرض الإنجازي من خطاب الجاحظ هذا فالقصد منه تبيان أهمية توخي الحذر من قبل المخاطب (الأديب الناشيء) في نشر انتاجه الأدبي وعدم التهاون في عرض هذا الإنتاج على ذوي الخبرة قبل انتحاله، فإذا شعر بالرضا عنه فلينتحله.

وعن اتجاه المطابقة في هذه الأفعال فمن العالم إلى الكلمات،وتكمن قوة الفعل الكلامي في استعمال التوكيد والتحذير والأمر فضلاً عن أسلوب العرض، فبهذه الأساليب بلّغ الجاحظ خطابه وهو توجيه المتلقي إلى كيفيّة اختبار جودة انتاجه الأدبي ومن ثمّ انتحاله.

3.الوعديّات Commissives:

أو الإلتزاميّات، " وغايتها الكلاميّة تكمن في التزام المتكلّم بفعل شيء ما"[17] في المستقبل، واتجاه المطابقة في الغرض الإلتزامي بكون من العالم إلى الكلمات،والمسؤول عن ذلك المتكلّم، والمتكلّم في الوعدّيات لا يحاول التأثير في المستمع[18]، " وشرط الإخلاص فيها يكمن في القصد، أي في القيام بفعل في المستقبل للمتكلّم وقدرته على أداء ما يلزم نفسه به"[19].

وينقل لنا الجاحظ عن أبي عاصم النبيل، قال في سنده عن أسماء بنت يزيد بن السكن الأنصاريّة، قالت: " قال رسول الله(ﷺ): مَنْ ذَبَّ عن لحم أخيه بظهْرِ الغيب كان حقّاً على الله أنْ يُحرّم لحمَه عن النار"[20].

يُعدُّ هذا الحديث الشريف الذي بين أيدينا ضمن صنف الوعدّيات، وكان من أفعاله: المضارع (يُحّرم)، والماضي (ذَبَّ)؛ إذ تراوحت أفعال هذا الحديث الشريف بين الماضي الهادف للإخبار والتقرير، والمضارع الهادف للحركة والحيويّة.

وعن أسلوب الشرط ففيه ربط العمل بجوابه، وهو فعل إخباري لمجازاة الله عزّ وجل عبده بالذبّ عن لحم أخيه في غيبته، وردع اغتيابه. وحضور أسلوب الشرط في هذا الخطاب يستدعي حضور البُعد التداولي، وذلك من وجود شرط العمل وجوابه المتمثل في

الأجر والثواب الذي يستلزمه القيام بهذا العمل، وقد تسلسل الحديث في ترسيخ هذا المعنى بقصد ترغيب المخُاطب في القيام بهذا العمل، وهذا ما يتطلبه الخطاب.

كما استعان بتقنية التشبيه، فشبه دفع الغيبة والنميمة بقوله: " ذبَّ عن لحم أخيه"، كوسيلة من وسائل الإقناع للوصول وبلوغ الهدف المنشود.

وتمثّل المحتوى القضوي في الإلتزام بالثواب في المستقبل، أي أنّ الثواب والجزاء يكون بالأجر الذي يُجازي به الإنسان على عمله.

أمّا الغرض التداولي الذي أنجزه الحديث، فهو حثٌّ وتحريض المخاطبين على القيام بمثل هذا العمل، ودعم الروابط الإنسانية، فضلاً عن بيان عظم الأجر والجزاء من الله تعالى.

4.التعبيريّات أو البوحيّات Expressives_:

وغرضها الإنجازي هو التعبير عن الموقف النفسي تعبيراً يتوافر فيه شرط الإخلاص، وليس لهذا الصنف اتجاه مطابقة، فالمتكلّم لا يحاول ان يجعل الكلمات تطابق العالم الخارجي، ولا العالم الخارجي يطابق الكلمات، وكلّ ما هو مطلوب الإخلاص في التعبير عن القضيّة،ويدخل في هذا الصنف أفعال الشكر والتهنئة والاعتذار والتعزية والترحيب[21].

ومن هذا الصنف ما نقلهُ الجاحظ عن عبد الله بن شداد[22]، قال : " أرى داعي الموت لا يقلع، وأرى مَنْ معنى لا يرجع. لا تزهدَنّ في معروف، فإنَّ الدهر ذُو صروف.وكم من راغبٍ قد كان مرغوباً فيه، وطالب أصبح مطلوباً إليه.

والزمانُ ذو ألوان، ومَنْ يصحب الزمان يرى الهوان. وإن غُلِبتَ يوماً على المال فلا تُغلَبَنَّ على الحيلة على حال. وكُن أحسنَ ما تكون في الظّاهر حالاً، أقلَّ ما تكون في الباطن مالا"[23].

يمكن تصنيف النص أعلاه ضمن التعبيريّات أو البوحيّات، ونجد أنّ معظم الأفعال الواردة فيه مضارعة، ومنها: أرى، يقلع، يرجع، تزهد، يصحب، وكثرة هذه الصبغة أفضت على النص الحيوية والحركة فضلاً عن التقسيم والتناظر بين الجمل مع السجع الذي كلل النص بالتناسق الصوتي.

ومن الملاحظ أنّ المرسل أهمل الإجمال، وابتدأ خطابه بالتقسيم، ففصّل في المسألة وقام بتوضيح المبهم، وهو أسلوب يبعث على الطمأنينة في نفس السامع، ويُساعد على إحياء عنصر التشويق، ويدفع إلى التساؤل.

وعلى مستوى الجمل نجد أنّها تنوّعت بين خبريّة وإنشائية وتقريريّة، فمن الجمل الخبريّة:

- أرى داعي الموت لا يُقلع.
- أرى مَنْ معنى لا يَرجع.

وتكرار الفعل (أرى) وسيلة بلاغيّة مهمة لها غرض هادف في الخطاب القصد منه تأكيد القول وتقوية الفعل ألإنجازي.

ومن الجمل الإنشائية:

- النهي: لا تزهدَنّ في معروف.

لا تُغْلَبَنَّ على الحيلة على الحال.

- الأمر: كُن أحسن ما تكون في الظاهر حالا.

وقد استعمل أداة الشرط " مَنْ" التي تستعمل للعاقل وتُفيد تحقيق الشرط لوجود فعل الشرط، ولا تدخل إلاّ على الفعل[24].

والأفعال التي جاءت في هذا النص مثيرة لمشاعر الرغبة والرهبة، لذا تجعل المخاطَب متفاعلاً مترقباً.

والهدف التداولي الذي تضمّنه النص يتجلّى في محاولة دفع المتلقي إلى درجة من الطمأنينة والراحة والسكينة بقوله : " وكن أحسن ما تكون في الظاهرِ حالاً".

وهذه الافعال قد حققت الغرض الإنجازي المتمثل في حسن التعبير عن حالات نفسيّة متنوعة تختلج نفس المخاطِب، هذا الاحساس الصادق الذي يظهر من خلال الانفعالات المختلفة.

5 . الإعلانيّات Declaration :

وهذه الأفعال((تكون حين التَلفُّظ بها، وغايتها الكلاميّة تَكمُن في إحداث تغيير عن طريق الإعلان))[25]، والسّمة المميزة لهذا الصنف من الأفعال الكلاميّة أنَّ أداءها الناجح يتمثَّل في مُطابقة محتواها القضوي للعالم الخارجي ، وأهم ما يُميز هذا الصنف من الأفعال

عن الأصناف الأُخرى أنَّها تُحدثُ تغييراً في الوضع القائم[26]. أمَّا عن شرط الإخلاص فيكفي إنجازها بنجاح لتحقيق المطابقة[27].

ومن النصوص التي تتَّضح فيها قصديَّة المُرسِل من خلال نظريّة الأفعال الكلاميّة ما جاء بهِ الجاحظ ((قال: وتنقَّصَ ابنٌ لِعبدالله بن عروة بن الزُّبير عَليَّاً رَحِمَهُ الله، فقال لَهُ أبوه: والله ما بنى النَّاس شيئاً قَطُّ إلَّا هَدَمهُ الدِّين، ولا بَنَى الدَّين شيئاً فاستَطاعت الدُّنيا هدْمَهُ، ألَم تَرَ إلى عَليّ كيفَ يُظْهِرُ بَنو مَروان من عَيبهِ وذمِّهِ؟ والله لَكأنَّما يأخذونَ بناصيتهِ رَفْعَاً إلى السَّماء. وما تَرَى ما ينذُبون بِهِ موتَاهم من التأبين والمَديح؟ والله لَكأنَّما يَكْشفون عن الجِيَف))[28].

من المُلاحظ على هذا النَّص استعمال المُرسِل أسلوب الحِوار ليُحقِّقَ قَصْدَهُ الإنجازي من أفعال الكلام بصورتها المباشرة الصَّريحة، والتي وَرَدَ منها بصيغة الماضي: تَنقَّصَ، قالَ، بَنى، هَدَمَ، استطاعَ، التي أَفادت التَّقرير، كما أنَّها ناسبت مقام السَّرد وتقرير الحقائق وتثبيتها.

أمَّا الأفعال المُضارعة فقد جاء منها: تَرَ(المجزوم)، يُظهر، يَأخذون، تَرى، يَندبون، يَكشِفون. و وجود هذة الأفعال في الخطاب أفضى عليه الحركة والحيويّة و الديمومة والاستمرار لأنَّها تُفيد الحال والاستقبال. وتَنوّع هذهِ الأفعال دلالة على التَّغيُّر.

ومن أبرز ما يُميّز النص: إستعمال القَسَم مع التوكيد المضاعف (لام التوكيد + الأداة) من قِبَل المُرسِل:

- والله لَكأنَّما يأخذون بناصيته رَفعاً إلى السماء.
- والله لَكأنَّما يَكْشِفون عن الجّيف.

والتوكيد من أهم الأغراض التي يستخدمها المُتكلِّم لإزالة ما يعلق بذهن السامع من ظَنٍ أو غَلَط، فالأبعاد المعنوية للتأكيد ترتبط بقصد المُتكلّم وحال السامع، مما يؤكّد الإتِّصال الوثيق بين التراكيب اللغويّة و مُستعمليها، فتأكيد المُتكلِّم شيئاً ما وتقريرهُ إنَّما يرجع غلى ما يصبو إليه من تحقيق مقاصد تواصليّة مع المُستَمع، ومن هنا يَتَّضحُ أنَّ وضع التراكيب وما يَتَطلَّبهُ من ألفاظٍ مخصوصةٍ تابع للتأديَة الملائمة لِقَصْد المُتَكلّم مع مُراعاة حال السّامع.

ويرجع حذف الفعل العامل في المصدر(رفعاً) إلى أغراضٍ تداوليّة تترشح عن قصد المُرسل، منها[29]:

- الدَّلالة على الإستمرار والدوام، وذلك بلاقتصار على المصدر دون الفعل.

- سرعة الفراغ إلى ذكر المَقصود الأهم.

والغرض التداولي هو إعلان حقائق غابت عن ذهن المُخاطب، باختلاط الأمور لديه، وتفعيل الخطاب وتسريع عملية التواصل والتفاعل بين طرفي أو عنصري العمليّة الحواريّة التّواصليّة، وإفادة المُخاطَب بما تَضمَّنه النصّ من حقائق، وتثبيتها في نفسه. فالنَّص يُنجِزُ لنا تدوليّة مفادها السعي إلى إحقاق الحقّ وإظهار الباطل في كلِّ الظروف.

أمَّا الفعل الناتج عن القول والغرض الإنجازي فهو ما دلَّ على ترك أثر في الواقع، ويتجلّى في إظهار منزلة الإمام عليّ (عليه السلام)، والاعتراف بفضله و مقامه لدى مَنْ جهل أمره.

واتِّجاهُ المُطابقةُ هنا يكون من الكلمات إلى العالم، ومن العالم إلى الكلمات، كما أنَّه من الواضح أنَّ شرط الإخلاص متوفرٌ في الخطاب.

خاتمة:

يُمكننا في ضوء دراسة بعض نصوص(البيان والتبيين)للجاحظ أن نُسجّل أهم النتائج التي توصَّلنا إليها، وكما يأتي:

1- إنّ (القصد)، كموضوع بحثي، وكمصطلح لساني تداولي هو مصطلح متداول في المدونات العربيّة الكبرى، وقد يرد بمسميّات أخرى مثل (الغرض).

2- وقد بيّنت الدراسة حقيقة اهتمام(الجاحظ) بالتواصل، ووعيه بعناصره وآلياته وهو عنده على نوعين: تواصل لفظي لغوي/ كلامي، وتواصل غير لفظي (سيميائي/ إشاري)، وهذا يجعل(الجاحظ) رائداً للنظرية التواصلية، حيث حملت الدراسات التي اعتمدت على التواصل الكثير من الأفكار والمبادئ التي نادى بها قديماً، كمبدأ الإفادة والتبليغ، والفهم والإفهام، ومراعاة المقام ومقتضى الحال، وغيرها من المبادئ التي شكّلت الأساسات التي عليها النظرية التداولية عند المعاصرين، من أمثال أوستن وسيرل وغرايس وفان ديك وغيرهم. وعليه فإنّ إدراك (الجاحظ) لقضايا البيان راجع إلى وعيه بأهمية العملية التواصلية بين المتخاطبين؛ إذ استحكم الخطاب في(البيان والتبيين)استراتيجيات خطابية مهمة بين أقطاب عملية التواصل، تسهم في ترجيح أدوات وآليات بعينها، مناسبة لعملية الفهم والإفهام بين طرفي الخطاب، ومعرفة هذه العناصر تسهم في عملية التعبير عن المقاصد. وبمعرفة هذه الآليات نستطع الوصول إلى مقاصد المرسل، واستخراج أهم الأغراض الموجودة في الخطاب.

3- وبعد فإن الغاية القصوى، والهدف الأسمى الذي توصّل إليه البحث، هو مدى مرونة النصوص التراثية في كيفية تحليلها، وقابليتها لاستحكام مختلف الآليات والإجراءات التي أنتجتها مختلف الدراسات الحديثة، ومنها التداولية، كمنهج يملك آليات ناجحة في كيفية تعامله مع النصوص التراثية، وفي كيفية تأويل الأقوال، وبلوغ المقاصد الفعليّة للمؤلَّف أو مُرسل الخطاب، وذلك بالاعتماد على (مبدأ القصد) بمفهومه الكامل.

هوامش البحث:

(1) مدخل إلى اللسانيات التداولية، الجيلالي دلاش، تر: محمد يحياتن28.

(2) يُنظر: آفاق جديدة في البحث اللغوي المُعاصر، محمود أحمد نحلة 49 – 50 .

(3) التداوليات علم استعمال اللغة، عبد السلام اسماعيلي علوي 22.

(4) الفعل اللغوي بين الفلسفة والنحو، يحيى بعطيش (ضمن كتاب التداوليات علم استعمال اللغة) 98.

(5) معجم اللسانيات الحديثة، حنا سامي عياد وكريم زكي حسام الدين ونجيب الريس 112.

(6) آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، محمود أحمد نحلة85.

(7) نظرية الافعال الكلامية بين فلاسفة اللغة المعاصرين والبلاغيين العرب، سيد هاشم الطبطبائي 30.ويُنظر:آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر 79 .

(8) البيان والتبيين 194/1 – 195 .

(9) كتاب سيبويه 12/1 .

(10) الخطاب الشعري(استراتيجية التناص)، محمد مفتاح 140 .

(11) التّداولَة عند العلماء العرب، مسعود صحراوي 61 .

(12) آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر،محمود أحمد نحله 82.

(13) تحليل الخطاب المسرخي،عمر بلخير60.

(14) آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر82.

(15) تحليل الخطاب المسرحي60.

(16) البيان والتبيين203/1.

(17) في اللسانيات التداولية، خليفة بوجادي 99.

(18) آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر 82.

(19) نظرية الافعال الكلامية، السيد هاشم الطبطبائي31.

(20) البيان والتبيين 38/2.

(21) آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر 83.

(22) هو عبد الله بن شداد بن الهادي الليثي المدني، من كبار التابعين وثُقاتهم، شهد مع الإمام علي(ع يوم النهروان، وخرج مع القُراء ايام ابن الأشعث على الحجّاج، وُلِدَ على عهد الرسول (ص وآله، وقُتِلَ يوم دُجَيلَ سنة 81هـ.

(23) البيان والتبيين 113/2 – 114.

(24)النحو الوظيفي، صالح بلعيد 92.

(25) في اللسانيّات التداوليّة 100 . ويُنظر: تحليل الخطاب المسرحي 160 .

(26) آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر 83 .

(27) نظرية الأفعال الكلاميّة 30 .

(28) البيان والتَّبيين 2 / 173 – 174 .

(29) يُنظر: شرح كافية ابن الحاجب ، رضي الدين الأستراباذي 1/ 275 .

المصادر والمراجع:

1. آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، محمود أحمد نحلة، دار الآداب، القاهرة – مصر، ط 1 ، 1432 هـ– 2011 م.
2. البيَان والتَّبيين، أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ(ت 255 هـ)، تح:عبدالسلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة – مصر، ط 7 ، 1418 هـ– 1998 م.
3. تحليل الخطاب المسرحي في ضوء النظرية التداولية، عمر بلخير، منشورات الإختلاف، الجزائر ن ط 1، 2003.
4. التّداوليّات علم استعمال اللغة، إعداد وتقديم: حافظ اسماعيلي علوي، عالم الكتب الحديث، عمان– الأردن، ط1 ، 2011 م.
5. التّداوليّة عند العلماء العرب (دراسة تداولية لظاهرة الأفعال الكلاميّة في التراث اللساني العربي)، مسعود صحراوي، دار الطليعة، بيروت – لبنان، ط 1، 2005 م.
6. الخطاب الشعري(استراتيجيّة التّناص)، محمد مفتاح، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء–المغرب، ط3 ، 1992 م.
7. في اللسانيّات التَّداوليّة(مع محاولة تأصيليّة في الدّرس العربي القديم)، خليفة بوجادي، بيت الحكمة للنشر والتوزيع، الجزائر، ط1 ، 2009 م.

8. شرح كافية ابن الحاجب(ت 646 هـ)، رضي الدين الأستراباذي(ت 686 هـ)، تح: أحمد سيد أحمد، المكتبة التوفيقيّة، القاهرة– مصر، د–ت.
9. مدخل إلى اللسانيات التّداوليّة، الجيلالي دلاش، تر: محمد يحياتن، دار المطبوعات الجامعيّة، الجزائر، د–ت.
10. معجم اللسانيات الحديثة، سامي عيّاد حنا، و كريم يحيى حسام الدين و نجيب الريس، مكتبة لبنان ناشرون، لبنان، ط 1، 1997.
11. نظريّة الأفعال الكلاميّة بين فلاسفة اللغة المعاصرين والبلاغيين العرب، طالب سيد هاشم الطبطبائي، منشورات جامعة الكويت ،1994 م .